معركة الاسلام والرأسمالية

تأليف الأستاذ سير قطب

للأستاذ ابراهيم الوائلي

إن النكسة التي أصابت الإسلام في تطبيق نظمه على منهجها الصحيح ترجع إلى أكثر من ثلثمائة وألف سنة . أي: منذ تحول الحكم المقيد بالشورى إلى ملك مطلق يورث كما تورث القصور والبساتين والأموال ، وقد بعدت الشقة بين النظم الاسلامية وبين تطبيقها يوم أن تسلط على رقاب المسلمين عناصر لا تعرف من الحياة غير البذخ واللذات والشهوات ، وتعقدت المشكلة أكثر من ذلك يوم أريد لهذا الدين الواضح السهل أن تنصب فيه تيارات غريبة عنه من التقاليد والعادات التي لا عهد للمسلمين بها . وفي بداية النكسة قام أبوذر يبث الدعوة للاسلام الاشتراكي حتى تحمل الأذى في سبيل مبادئه . ولم تكن دعوته إلا صدى للدعوة الأولى عند انبثاق الفجر ، واستجابة للحد من تلك الطفرة البعيدة التي مني بها الاسلام في مرحلته الأولى حتى أعلت الزمام في المراحل التي بعدها

ولا نغالي إذا قلنا : إن تلك القصور على النوطتين أيام الأمويين ، وفي بغداد وسامراء أيام العباسيين ، وعلى البسفور والدردنيل أيام العثمانيين ، لم تكن إلا من الأمثلة السيئة في تاريخ الإسلام الصحيح . أما في عرف التبجيح والارستقراطية فهي رمز للمكانة الكبرى التي كان يتمتع بها أولئك الخلفاء كما يسميهم التأريخ !! . نعم : التاريخ الناطق المقلوب ... خذ مثلا من أمثلة هذا التأريخ المقلوب من حاكم عباسي كبير عربيد يهب في إحدى لياليه للخمار ألف دينار وزوجة الخمار مثلها ، ولكل واحدة من بناته خمسمائة ، ويطلب من شاعره أن يصف هذه الليلة فيقول الشاعر :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا
عودي بيوم سرور كالذي كانا
لا تحرميها دعابات الإمام ولا
طيب البطالة إبرارا وإعلانا

هذا الحاكم الكبير الواهب يسميه التأريخ خليفة للمسلمين ويسميه الشاعر (إماما) : وما أبعد هذا عن الخليفة القائل :

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

أتعلم من ذلك (الخليفة الإمام) ؟ إنه الواثق العباسي ، أما الثاني فهو علي بن أبي طالب ، وليس في تأريخ المسلمين غير (علي) واحد يحمي الحديدة لأخيه عقيل من أجل حفنة من الشعير اقتصدها من قوته اليومي ، ولكن كم في تأريخ المسلمين من (واثق) مسرف كبير ! إن أمثال هذا هم الذين أشاعوا التفسخ في دنيا الاسلام ، وها نحن أولاء نقاسي تبعات هذا التفسخ في عصرنا الحاضر ، هذا العصر الذي لم يرث عن عصر علي وعمر أي شيء ، كما أنه لم يرث عن الأمويين قوتهم وفتوحاتهم ولا عن العباسيين علومهم وآدابهم ، وإنما ورث عن هؤلاء وأولئك البذخ والترف والقصور والأقطاع ، كما ورث عن العثمانيين والمماليك كل ما اتصفوا به من الاستبداد المطلق والجشع الماحق ، والرشوة والنهب والسلب وبيع الوظائف في سوق (المزاد) السري وإغداقها على الأنصار والذيول . ورث منهم هذه الفروق الشاسعة بين طبقات الناس ، فإلى جانب القصور المحلقة بأجنحتها تعشش الهياكل الآدمية في أكواخ وبيوت كأنها القبور ليس فيها إلا الدود والعظام . وإلى جانب الأكراش المترهلة بألوان الطعام بطون وبطون تنطوي على الجوع والحرمان . وإلى جانب الأكتاف والنحور المثقلة بالفرو والسنجاب واللؤلؤ والجواهر أجساد عارية لا تجد الكساء . وإلى جانب الاقطاعيات المترامية مشردون لا يجدون مفحص قطاة وإلى جانب الحكام والمتنفذين محكومون يلوذون بالصمت حينا وبالتذمر حينا آخر ، وكلا الحالين أحلاهما مر ؛ ففي الأول جوع ، وحرمان وفي الثاني سجن وتعذيب . وإلى جانب الاستعمار المستشري شعوب ذليلة خاضعة تأتيها الصفعة من كل جانب ، !! هذا هو التفسخ السياسي والاجتماعي في البلاد

العربية والاسلامية بصوره لنا الأستاذ الكبير سيد قطب فى كتابه الجديد « معركة الإسلام والرأسمالية » ففى هذا الكتاب دعوة صارخة إلى الحق والكف عن الفوضى التى دهورت المجتمع العربى والاسلامي وجعلت منه ميدانا فسيحا لعبث العابثين وألعوبة بين المستعمرين حتى تساوى متعلموه وجهاله فى ضعف الذاتية وتبلد الفكر والتواء الطريق وسخف الهدف والاتجاه . وكثيرا ما نسمع فى هذه الأيام من الكلمات الفارغة هنا وهناك فى الإصلاح والتكتل الاسلامى وما شابه ورادف .. كلمات لاتجدى شيئا لأن قائليها عبيد مأجورون قد انعدمت ذاتيتهم وضؤلت نفوسهم . أما الأستاذ قطب فليس من أولئك لأنه ليس بسياسي (مأجور) ولا ممما يتجر بالدين، وإنما هو واحد من أحرار الفكر والضمير

ومن الخير أن أسوق بعض الأمثلة من هذا الكتاب الذى بين أيدينا . قال الأستاذ قطب فى ص ٧ . :

« إن الإسلام ليصرخ فى وجه النظام الاجتماعى والاسترقاق الأقطاعى وسوء الجزاء ، وإنه ليجد المكافحين لهذه الأوضاع بقوة ضخمة من الكفاح والصراع ، وما من وضع اجتماعى هو أبعد عن روح الإسلام من أوضاعنا القائمة . وما من إثم أكبر من إثم الذين يدينون بالإسلام ثم يقبلون مثل هذه الأوضاع أو يبررونها باسم الإسلام ، والإسلام من مثلها براء »

ويتحدث عن الكتلة الإسلامية فيقول فى ص ٣٣ :

« فى هذا العالم رقعة فسيحة متصلة الحدود من شواطئ الأطلنطى إلى جوانب الباسفيكى تضم أكثر من مائتى مليون من الناس يشتركون فى عقيدة واحدة ونظام معيشى واحد ، وتقاليد متقاربة وامة إن لا تكن واحدة فهى فى طريقها لأن تصبح لغة التفاهم للجميع ... فأى عقل يمكن أن يتقبل هذه الكتلة الضخمة من الحساب ؟ »

وفى ص ٣٨ يتحدث عن العالم العربى وموقفه من النزاع الدولى فيقول :

« إن هذا العالم العربى الممزق فى براثن الاستعمار الغربى ليستحق الامتهان والاحتقار إذا مد يده القذرة ليسند الغرب الفاجر فى بأسه مرة أخرى »

قد يقال . إن الأستاذ قطب يدعو إلى فكرة رجعية تحرمنا (لذة) الاتصال بالغرب ولكن الشأن غير ذلك فهو يقول فى ص ٣٥ و ٣١ :

« نحن لا ندعو إلى عزلة فكرية أو اجتماعية عن ركب الإنسانية المندفع فنحن شركاء فى القافلة ، شركاء فى الحضارة البشرية . . . ولكننا ننعى هذا التسول الدائم الذى نزاوله وهذا الاستجداء المزرى الذى نحن عاكفون عليه . . . وما دمنا نستجدى دائما ولانعطى شيئا فنحن على مائدة الإنسانية فى موضع الشحاذ المتسول لا فى موضع الواهب الكريم »

هذه بعض الأمثلة من هذا الكتاب ؛ وكله على مثل هذا النسج وقد كتب بأسلوب مؤثر نكمن فى طياته حرارة القلب المؤمن بوطنه ودينه وأمته ، ونضج المفكر الحر الذى يشعر بكرامته وكرامة جنسه ، وصدق الداعى الذى يؤمن برسالته أحر الإيمان . ولعل هذا الوصف الشامل الدقيق للحالة الاجتماعية والسياسية يعود ويكون مقدمة لما فى الكتاب من استيحاء للنظم الإسلامية فى مختلف نواحى الحياة، وقد عالج الأستاذ قطب هذه النظم بدقة وطبقها من الوجهة النظرية على شؤون المجتمع

هناك كلمة أقولها للصديق الكبير على صفحات الرسالة ولعلى قلتها له فى معارض الحديث أكثر من مرة : إن هذه الدعوة التى يدعو إليها حق لا مراء فيه ولكن أين هى القوة النفذة التى تستطيع أن تطبق الأحكام والنظم الإسلامية بدقة ؟ وهل باستطاعتنا أن نخرج من الحدود النظرية إلى العملية فى وقت تتولى السلطة فيه طبقات تحارب الإسلام لأنه يحاربها . . . ؟ وهل بإمكاننا أن نقيم صرحاً متينا على دعائم متأكلة وجدران متداعية ؟ إن لحظة من الزمن وكلمة من لسان لا تستطيعان استخلاص الإسلام من الشوائب التى علقت به طيلة ثلاثة عشر قرنا ، ولكن بعد أن تنقى التربة وتسقى الماء يمكن أن نعيد غرس هذه الشجرة من جديد وأن ننعم بظلها وثمرها

ولعلى أنجنى على الأستاذ قطب بهذه الكلمة لأنه لم يتقبل هذه الناحية التى تعترض طريق التطبيق بل ألح عليها كثيراً واستعرضها استعراضا شاملا وأهاب بالشعوب الخاضعة والجماهير المغلوبة أن